اتجاهات عبد الملك بن مروان النَّقدية في تذوقه للشِّعر العربي

أحمد المهدي أحمد و محمد علي أحمد
[1,2] جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا كلّية اللُّغات، قسم اللُّغة العربيَّة

المستخلص:

تناولت الدِّراسة: (اتجاهات عبد الملك بن مروان النَّقدية في تذوقه للشِّعر العربي) ووقفت على: حياته ونشأته، وشاعريته، وروايته للشِّعر وتمثله به، وإعجابه ونقده لأغراض الشِّعر المختلفة من وصف، وفخر، وحماسة، ومدح، وهجاء، وغزل، ورثاء، ومُفاضلة بين الشُّعراء، وهدفت الدِّراسة للتعريف بعبد الملك كناقد حصيف له منزلة نقدية لا تنقص عن منزلته السِّياسية ومقدرة على تذوق الأشعار والحكم عليها. وتوصلت إلى أنَّه اتخذ الصِّدق في الشِّعر مقياساً في تفضيله للشُّعراء. واتبعت الدِّراسة المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاحية: *الصِّدق –التجديد –المقياس.*

ABSTRACT:

The purpose of this study is to show: (The critical trends of Abd al-Malik ibn Marwan in appreciating Arabic poetry), it shows his life and upbringing, his poetics, his narrating and citing of poetry, his admiration and criticizing of the different genres of poetry and his methods in differentiation between poets, the study objective was to present Abd al-Malik as discreet critic who has high status as a critic that is not less than his political status. The study reached that he used the sincerity as a preferential criterion for assessing poets.

The study used the descriptive analytical method.

key words: *Honesty – Renewal - the scale.*

المُقدمة:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبد الله، وبعد، لقد نزل القرءان الكريم بلغة مُعجزة كلأها الله بالحفظ والرعاية ما دامت السماوات والأرض –تفرعت إلى أبوابٍ متعددةٍ وكان (الأدب) من أهم أبوابها، ندب إليه عُلماء العربيَّة –منذ أمد بعيد –وكان ممَّن ندب إليه، عبد الملك بن مروان، فلقد أخذ يغرف من بحره، ويتعلق بحبله، لكنَّ تعلّقه الأسمى كان بنقد الشِّعر، له فيه سبح طويل ورأي أصيل، ومقارنات، وموازنات، ومصطلحات، وأقوال في معاقد الأدب والنَّقد، تثور الذاكرة في استخراجها، ولبيئته وعصره ومنزلته، سهم في كلِّما تقدم، أمَّا بيئته فعربيَّة خالصة، وأمَّا عصره فيُحتجُ بلغته؛ لأنَّه من عُصور العربيَّة الزاهرة، وأمَّا منزلته النّقدية فلا تقل عن منزلته السِّياسية إن لم تك أرفع، ولقد كانت تلح عليَّ فكرة جمع جهوده النَّقدية –منذ أعوام – بصورةٍ منظمة كُلّاً تحت بابه، لكنَّها ظلت كَنِيْئَةَ الذهن، حَتَّى أكرم الله مثواي بهذه الدِّراسة الَّتي وصلت وشائج الود بيني وبينه، فآضت الآمال حقائق.

مُشكلة الدِّراسة: تتمثل مُشكلة الدِّراسة في الأجوبة عن الأسئلة التالية:

1- ما دور عبد الملك بن مروان في النَّقد العربي؟

2- إلى أي مدى كان عبد الملك بن مروان نزيهاً في نقده، مُتجرداً من المُيول السِّياسية والمذهبية والعرقية والقبليه؟

3- إلى أي مدى كانت توجيهاته النَّقدية صائبةً؟

أهمية الدِّراسة:

تتمخُض أهمية الدِّراسة في أنَّها 1- تدرس علماً من أعلام الأمة الإسلامية والعربيِّة تألق اسمه في السِّياسة والفكر والأدب والنَّقد والتربية.

2- اثبت أنَّ النَّقد العربي قديم النشأة راداً على من يزعم أن ليس للعرب نقد مستقل في هذا القرن؛ إذ ّما اتضحت معالمه في العصر العبَّاسي.

أهداف الدِّراسة:

1- التعريف بعد الملك بن مروان.

2- بيان الطرق النَّقدية عند عبد الملك بن مروان.

3- جمع جُهوده النَّقدية بصورة منهجية منظمة، كُلًا تحت بابه؛ ليسهل الرجوع إليها.

4- ابراز تراث العُلماء الأدبي والنَّقدي –لا سيما –الخُلفاء منهم.

منهج الدِّراسة:

اتبعت الدِّراسة المنهج الوصفي ومن أدواته التحليل والنقد.

حياته ونشأته:

(هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُميَّة) (السيوطي، 2003م، 17)وكان يـُكنى (بأبي الوليد) (المرجع نفسه، 171) ويُلقب ب(رشح الحجارة) لبخله) (النويري، 2004م، 10/ 183) وكان يُلقب (بأبي الأملاك؛ لأنَّه أبو أربعة من خُلفاء بني أُمَّية تعاقبوا على الخِلافة، وهم: الوليد، وسُليمان، ويزيد، وهُشام) (ابن عبد ربه، 1953م، 398/4) (وُلِد بالمدينة سنة 23هـ) (ابن سعد، 2001م، 221/7) (وقِيل سنة 26هـ) (ابن عبد ربه، 5/ 138)

(كان أبيض اللون، طويل القامة، ليس بالنحيل ولا البدين، نقش على خاتمه (آمنت بالله مُخْلِصاً) (الزركلي، 2002م، 4/ 165)

(استعمله مُعاوية على المدينة وهو ابن 16 سنة) (ابن سعد، 2001م، 7/ 221)قَبل الخِلافة

(وعَمِل كاتباً على دِيوان المدينة زمن مُعاوية) (الأعلام، 4/ 165) وولِي الخِلافة بعد موت مروان بن الحكم سنة 65هـ فضبط الأمور وظهر بمظهر القوى: فكان جباراً على معانديه) (ابن سعد، 7/ 223)

كان عبد الملك وافر العقل غزير العِلم، قال الشَّعبيُّ: (ما جالستُ أحداً إلَّا رأيتُ لي عليه الفضل إلَّا عبد الملك بن مروان، فإنني ما ذكرته حديثاً إلَّا وزادني فيه، ولا شِعر إلَّا وزادني فيه) (الأعلام، 4/ 165)

توفى "بدمشق يوم الخميس للنصف من شوال سنة 86هـ، وله من العمر 60 سنة، مُدَّة خِلافته 21 سنة وشهراً ونصف، مات وهو ابن 58 سنة" (ابن سعد، 7/ 232)

وقِيل كان عمره لَمَّا مات "57 سنة، وقيل 61 سنة، وقِيل 64 سنة" (البغدادي، 1931م، 10/ 388- 389)

شاعريته:

كان عبد الملك بن مروان شاعراً ونَسب شِعْر يسيِّر له، ومن ذلك ردّه علي ابن دعبل وكان ابن دعبل أنشده (أبو الفرج الأصفهاني، 1983م، 2/ 391)

يـَالْيتَ شِعْري وليت ربما نفعت ... هَلْ أُبصِرَنَّ بـَني العَوَّام قَدْ شُمِلُوا
بالثِّل والأسْو َوالتشريدإنَّهـُم ... عَلَى البَرِية حَقّ أينما نَزلوا
مـَهـَلْ أَراكَ بأكْنـَافِ العِراقِ وَقَدْ ... ذلّتْ بِعزِّكَ أَقْوامٌ وقَدْ كُلوا

فقال عبد الملك– ويروى أنَّه قائل هذا الشّعر –:

إنْ يـُمكِنِ اللهُ مِنْ قَيسٍ وَمِنْ جَسِ ... وَمِنْ جُذَامٍ ويـُقْتَلْ صَاحِبُ الحَرَمِ
نَضْرِبْ جَماجِمَ أَقْوامٍ عَلَى حَنَقٍ ... ضَرْباً نَكِلُ عَنّا سَائِرَ الأُمَمِ

روايته للشِّعر:

تغلغل حُبّ الشّعر في دمه وروحه وقطع به وقته، وأنشده في مواقف حياته كُلّها منه إنشاده لأبيات كثيِّر عَزَّة، عندما أراد الخُروج لِحرب مُصعب بن الزُّبير بالعراق، وتمسكت به زوجته وَلَمَّا لم تجد بـُغيتها بكتْ وتبعها الخادمات باكيات، وحينئذ أنشد قول كُثيِّر: (ديوان كُثيِّر عزَّة، 1971م، 241)

إذا مَا أرادَ الغزوَ لَمْ يثنِ همّه ... حَصانٌ عليها نَظْمُ دُرٍّ يزينُها
وَلَمْ يـَثْنِهِ عَنْ الصَّبابَةِ بَهيُها ... غَداة استَهلَّتْ بالدُموعِ شُؤونُها
نَهَتْهُ فلَمّا لَمْ تَرَ النَّهيَ عاقَهُ ... تْ فَبَكَى مِمَّا شَجاهَا قَطِينُها

وكان يتمثل في سُوحِ الوغى، بأبيات لشبيب بن البرصاء وكان مُعجَباً بشعره: (الأغاني، 12/ 327)

دعاني حِصْنٌ للفِرارِ فساءني ... مَواطِنُ أَنْ تُثني عليَّ بأشتَما
فقلتُ لحصنٍ: نحِّ نفسك، إنّما ... يذود الفتى عَنْ حَوضِهِ أَنْ يـُهدَّما
تأخرتُ أستبقي الحياةَ فلم أجد ... لنفسي حياةً مِثلَ أَنْ أتقدما
سَيكفيكَ أطرافَ الأسنّةِ فارِسٌ ... إذا رِيعَ نادى بالجواد وبالحمى
ذا المرءِ لَمْ يـَغشَ المكاره أوشكَتْ ... جِبالُ الهوينى بالفتى أن تَزَحَّما

الأبيات، تدعو إلى الثبات، جرياً على عادة العرب في الملاحم الحربية، كما تمثّل مُعاوية بن أبي سُفيان في (صفين) بأبيات حثته على الثبات، وساهمت في قيام الدَّولة الأُمويَّة.

والأبيات التي استشهد بها معاوية بن أبي سفيان هي: (صدر الدين علي، 1999م، 7/1)

تْ لي عِفّتي وأَبى بـَلائي ... وأَخْذي الحَمْدَ بالثمنِ الرَّبيحِ
وإقْدامي على المكْروهِ نَفْسي ... وضَربي هَامَةَ البَطَلِ المُشيحِ
وقَولي كُلَّما جَشَأَتْ، وجاشَتْ ... مَكانَكِ تُحْمِدي، أو تَسْتَريحي
لأُكْسَبها مآثِرَ صالِحاتٍ ... وأَحْمِي بَعْدُ عَنْ عِرْضٍ صَحيحِ
و

وظل عبد الملك يتمثل بالشّعر إلى أن حضرته الوفاة، قائلاً: (ديوان عمر بن قميئة، 1994م، 37– 38)

كأنّي وَقَدْ جاوزتُ تسعين حجَّةً ... خَلعتُ بها عنّي عذار لجامِ
رمتني بناتُ الدَّهرِ مِنْ حَيْثُ لَا أرى ... فكيف بمن يُرمى وليس برامِ
فلو أنها نَبْلٌ إذاً لاتّقيتها ... ولكنما أُرمى بغيرِ سِهامِ
وأهلكني تأميل يومٍ ولَيلةٍ ... وتأميل عامٍ بَعْدَ ذاك وعامِ

تدل هذه الأبيات على ضعف الحيلة وكثرة المصائب والخطوب، وكنّى الشاعر عن المصائب ب(بنات الدَّهر) ورمز للموت بالنبل فهو نَبلٌ لا يُعلَم له جهةٌ فيُتقى.

إعجابه ونقده لأغراض الشّعر المُختلفة:

الوصف: أُعجب عبد الملك بأشعار الوصف أيّما إعجاب ويروى أنَّه قال –لولده وأهله –: (أيّ بيتٍ ضربته العرب على عصابةٍ ووصفته أشرف وصف وحِواءٍ وأهل وبناء؟ فقالوا فأكثروا، وتكلّم من حضر فأطالوا. فقال عبد الملك: أكرمُ بيتٍ وصفته العربُ بيتَ طُفيل الّذي يقول فيه: (ديوان طُفيل الغنوي، 1997م، 23– 25)

يُبَكِّي تَهُبُّ الرِّيحُ في حَجَراتِهِ ... بأَرضٍ فَضَاءٍ أَبهُ لَمْ يُحَجَّبِ
سَمَاوَتُهُ أَسْمَالُ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ ... وَصَهْوَتُهُ مِنْ أَتْحَمِيٍّ مُعَصَّبِ
نَوَأْلِفُهُ أُرسانُ جُرْدٍ كَأَنَّها ... صُدُورُ القَنا مِنْ بادِئٍ وَمُعَقَّبِ
صَبَتْ عَلى قَوْمٍ، تَدُرُّ رِماحُهُمُ ... عُرُوقَ الأَعادِي مِنْ غَزِيرٍ وَأَشْيَبِ

الأبيات مُحملة بمعاني المدح، فلا حاجب على الباب، وهذا أبلغ في المدح، وأمَّا البيت فقد حُظي بشئ من جمالٍ وقوة وإحكام، وأمَّا سكانُهُ فشجعان فرسان يغشون المعارك والحروب بلا خوف ووجل، فجمع لهذا البيت أصنافاً من المدح.

وفي مجلس آخر يقع منه السؤال لِجُلسائه –مُحركاً ذاكرتهم الشّعرية– عن أرق المناديل، فتباينت أجوبتهم على غير الّذي أكنه الخليفة في خَلده، فلَمَّا رآهم بعدوا عن الجواب أجابهم، وأصل الخبر (أنَّ عبد الملك قال لجلسائه: أيّ المناديل أفضل؟ فقال قائلهم مناديل اليمن، وقال آخر: مناديل مصر... فقال عبد الملك: أفضل المناديل منديل عَبْدة بن الطَّبيب حيث قال: (علي بن أبي الفرج، 1999م، 1483/4)

لَمَّا وَرَدْنا ضَوْنا ظِلَّ أَحْيَةَ ... وفارَ لِلَّحْمِ لِلقَوْمِ المراجِيلُ
وَرْدٌ وَأَشْقَرُ ما يُوْنِيه طابِخُهُ ... ما غَيَّرَ الغَلْيُ مِنْهُ فَهْوَ مأكُولُ
ثُمَّتَ قُمْنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمَةٍ ... وَافُهُنَّ لأَيْدِينا مَناديلُ

أخذ عبدة معاني أبياته من بيت امرئ القيس الّذي يقول فيه:

ذُشّ بأَعْراف الجيادِ أَكُفَّنا ... إِذَا نحن قُمْنا عَنْ شِوَاءٍ مُضَهَّبِ

(وهذا إنَّما يكون في حال السِّفار لا في غير، ... وإذا كان ذلك في جميع أحواله، يكون بالنَّمِّ أشبه، لأنَّه إذا فعل ذلك في حال الطمأنينة وحين لا يُجدُّ به سَيْر، فإنَّما يفعله لِفرط الجشع وشدة الحرص على الطعام وهذا مَذْمومٌ) (البكري، 2000م، 82– 83) انظر إلى قول الشّماخ في هذا المعنى: (ديوان الشّماخ بن ضرار، 38)

وَأَشْعَثَ قَدْ قَدَّ السِّفارُ قَميصَهُ ... يَجُرُّ شِواءً بالعَصا غَيْرَ مُنْضَجِ

أمَّا في حالة الإقامة فالمذهب والحال عندهم التريث والتأني.

والحق إنَّ بيت امرئ القيس حاز على فضل التقدم وقِلة الكلم من أبيات عبدة، ولعلَّ الخليفة لم يذكره؛ لأنَّه لم يصل إليه، وربَّما وصل إليه ولكنَّه لم يستحضره في هذا المجلس.

الفخر:

دأب الشُّعراء أن فخروا بأنفسهم وقومهم، وكان عبد الملك يُحب أن يسمع أروع ما انتجته القرائح من هذا الضرب، وفي بعض الأشعار يمتزج الفخر بالمدح، ومن أنصع الشواهد مُفاضلته بين الأخطل وشبيب بن للبرصاء، يُروى أنَّ الأخطل أنشده:

بكر العواذل يبتدرن ملامتي والعاذلون فكلهم يلحاني

في أن سبقت بشربةٍ مقذيةٍ صُرفتْ مشعشعة بماءِ شنانِ

فقال عبد الملك: شبيب بن البرصاء أكرم منك وصفاً لنفسه حيث يقول: (أبو الفرج الأصفهاني، 12/ 280)

إنِّي لسهلُ الوجهِ يعرف مجلسي إذا أحزن القاذورة المتعنبسُ

يضيء سنا جودي لمن يبتغي القرى وليلُ بخيلِ القوم ظلماء حندسُ

ألين لذي القربى مراراً وتلتوي بأعناقِ أعدائي حبالٌ تمرسُ

فخر الأخطل بشربه الخمر المُشعشعة الَّتي مُزجت بالماء، وصور حديثه مع العاذلات من النِّساء ، وهذا فخر لا يشق طريقه للعقل أما شبيب بن البرصاء فقد فخر بطلاقة الوجه، وبسط اليد بالعطاء، ولين الجانب لذوي القربي، وشدته على الأعداء، فطابق في أبياته بين الضياء والظلام، والجود والبخل، واللين والقوى ،وأتى بمعاني الفخر الخُلقية، فنالت إعجاب الخليفة.

الحماسة:

هي شِعرٌ يهتم بوصف الحرب وما يتعلق بها من فخر بالشَّجاعة وامتشاق السلاح ونحو ذلك، وكانت الحماسةُ رائجةً في العُصور القديمة، وشائعةً عند الأدباء والنقَّاد فنجدهم يختارونها عنواناً لكُتبهم مثل: حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، والحماسة المغربية ،والحماسة البصرية ،والحماسة الصغرى والكبرى...

ولَمَّا كان هذا الفن شائعاً كان للخليفة نصيب منه سواء كان بالإعجاب أو الاستهجان ويدخل في إعجابه قوله لجلسائه: "أشجع العرب في شعره عبَّاس بن مرداس حيث يقول:

عَلَى الكتِيبَةِ لَا أُبَالِي أَحَتْفِي كَانَ فِيهَا أَمْ سِوَاهَا

وقيس بن الخطيم:

وَإِنِّي فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ مُوَكَّلٌ بِقَامِ ذَفْسٍ لَا أُرِيدُ قَاهَا

والُمزيني حيثُ يقول: (العسكري، 1402هـ، 21)

بُنِي قُحَافَةَ فَاسْتَجَابُوا فقلتُ: رِدُوا فَقَد طَالَ الوُرودُ

كلها أبيات حماسة مُقدمة في بابها.

وللخليفة طريقة ثانية وهي المفاضلة بين الشُّعراء في تفوقهم الشِّعري، فمن كان صائباً في الغرض، وقع عليه الثقيل، وأكثر الشُّعراء رضاً في نفسه هم القُدماء وقلّ أن يُفضل شاعراً معاصراً على شاعر قديم إذا وقعا في

غرضٍ واحد؛ ويرجع ذلك لتقديسه للموروث القديم، ومن هذا النوع ما رواه المرزباني في الوشح (إنَّ عبد الملك عاب على كُثيِّر قوله فيه يمدحه:

على ابن ابي العاصي دلاصٌ حصينةٌ أجاد السّدى سَرْدَها تَلَهَا

أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معد يكرب:

وإذا يُ:يَةٌ مَلْمومَةٌ شْهَاُ يَخْشَى الثّائدونَ الهَا

كُنتَ المُقَدَّمَ غيرَ لابسِ جُنَّة بالسَّيفِ تَضْرِبُ مُعْلَمًا أبطَالَهَا

فأجابه كُثيِّر (يا أمير المؤمنين، وصف الأعشى صاحبه بالطيش والخرق والتغرير، ووصفتك بالحزم والعزم، فأرضاه" (المرزباني، 179)

لم يرض المرزباني بهذا التعليق من كُثيِّر قائلاً: (أبيتُ أهل الشّعر بالشّعر يُفضلون قول الأعشى في هذا المعنى على قول كُثيِّر؛ لأنَّ المبالغة عندهم أحسن من الاقتصار على الأمر الوسط، والأعشى بالغ في وصف صاحبه بالشّجاعة حَتَّى جعله شديد الإقدام بغير جُنّةٍ، وإن كان لبس الجُنّة أولى بالحزمِ وأحق بالصواب، وقول كُثيِّر يقصر عن الوصف" (المرجع نفسه، 179)

المدح:

استهش المدح الخليفة، وكان موضعه في نفسه أجل من كل الأغراض وأجدى عنده من غيرها، به يحصل رَفعُ الذكر وتثبيت دعائم الحكم، وله فيه مع الشُّعراء وقفات، استفرغت أفواه المعابر، وسالت بها ألسنة الأقلام، ودبجها كتبة الأدب والتاريخ في بطون مطولاتهم؛ ولهذا أُعجب الخليفة بمعانيه وطفق يهب العطايا لمن أحسن، ومن ذلك أَنَّ جريراً أنشده:

تَعَزَّتْ أُمُّ حُزْرَةَ ثُمَّ قَالَتْ رَأَيْتُ الْمُرِدِينَ نَوِي قَاحِ

ذَقِي بالله لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ وَمِنْ عِنْدِ الخَلِيفَةِ بالنَّجَاحِ

سَأَشْكُرُ إِنْ رَدَدْتَ عَلَيَّ رِيشِي وَأُثْنِي القَوَادِمِ مِنْ جَنَاحِي

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ لِمَطَايَا أَنْدَى العالمينَ بُطُونَ رَاحِ

وكان الخليفة متكئاً فاستوى جالساً، وقال: من مدحنا منكم فليقل مثل هذا أو ليسكت! ثُمَّ قال: يا جرير، أترى أمَّ حزرت ترويها مائة ناقة من نعم كلب؟ قال: إن لم تروها يا أمير المؤمنين، فلا أرواها الله. فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب) (العقد الفريد، 1/ 278)

لقد جاءه جرير بفوق ما توسم، فمجد فضائله حتَّى تهللت أَسِرّةُ وجهه، وألجأته المعاني السامقة إلى طرب يَصْعُبُ معه تمالك النفس، وطفق يقول ما قال.

ومن إعجابه بمعاني المدح (أنَّ رجلاً من بني ضبة وفد إليه، وأنشده:

والله ما ندري إذا ما فاتنا طلب إليك مَنْ لَذي نتطلّبُ؟

فلقد ضربنا في البلادِ فلم نجد أحداً سواك إلى المكارمِ يُنْسَبُ

فاصبر لعادتنا الَّتي عوّدتنا أو لا فأرشدنا، إلى مَنْ نذهبُ

فقال عبد الملك: إليّ إليّ! وأمر له بألف دينار، ثُمَّ أتاه في العام المقبل فقال:

بربّ الذّي يأتي مِنْ الخيرِ إنَّه إذَا فَعَلَى المعروفَ زادَ وتّما
وليس كبانٍ حِيْنَ يَمْنَحُ ماؤه تتبعه بالنقصِ حَتَّى تهدّما

فأعطاه ألفي دِينار، ثُمَّ أتاه في العام الثالث، فقال:

إذا اسْتُطِروا كانوا مغازير في النّدى يجودون بالمعروفِ عوداً على بدءِ

فأعطاه ثلاثة آلف دِينارٍ) (أبو علي القالي، 1976م، 2/ 283- 284)

كان نقده يُعبّر عن انفعاله تجاه ما يسمع من ضروب الشّعر، يصقلها بذوق مرهف وسليقة عربية أصلية. إنَّ أجمل شعره بيته الثاني إذ يقول: فلقد ضربنا في البلاد.... فالشاعر لا يرى للممدوح مثيلاً ولا شبيه في أفعاله، ولا أحد يُنْسبُ للمكارم سواه، لقد تأثر الشاعرُ في بيته هذا بقول النَّابغة يمدح النُّعمان: (ديوان النَّابغة الذّبياني، 20)

أَرى فَاعِلاً في النَّاسِ يُشْبِهُ فِعْلَهُ وَلَا أُحاشِي مِن الأَقْوامِ من أَحَدِ

أضف إلى ذلك براءته من الاستجداء وطلب النوال للّذي يُشم في أبياته الأخرى ممَّا جعلها تتراخى منزلة عنه، ولذلك نجد انفعال الخليفة بالأبيات الأولى أشدّ من غيرها بحيث قال، إلّي إلّي جواباً عن السؤال. الّذي وقع فيها.

وكان يُعجب بمعاني عروة بن الورد الخُلقية رُوِي أنَّه قال: (ما يسرني أنَّ أحداً من العرب تمنيت أنَّه ولدني ممَّن لم يلدني، إلّا عُروة بن الورد لقوله: (ديوان عُروة بن الورد، 1996م، 122- 124)

إنِّي امرؤٌ عافى إنائي شِرْكَةُ وأَنْتَ امرؤٌ عافي إنائك واحد
أَتَهزأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَ أَنْ تَرى بجسمي مَسَّ الحَقِّ والحَقُّ جاهِدُ
أُقَسِّمُ جِسمي في جُسومٍ كثيرةٍ وأحسو قِراحَ الماءِ والماءُ بارِدُ

فقال عبد الملك: (من زعم أنَّ حاتماً أسمح النَّاس فقد ظلم عروة) (أبو الفرج الأصفهاني، 3/ 71)

حفلت الأبيات بالمروءة والإباء، فالشاعر نحيف الجسم بسبب قلت الأكل فهو لا يأكل لوحده ويُطْعِم غيره معه؛ لذلك نحل جسمه.

الصِّدق في المدح:

ألزم عبد الملك بن مروان الشُّعراء أَنْ يتقيدوا بهذا المقياس، ولمَّا أنشده أبو النَّجم قوله:

بذَا الّذي ربع الجُوشَ لظهرِهِ عُشرون وهو يُعد في الأحياءِ

قال عبد الملك: قف إن كنتَ صادقاً في هذا البيت، فلا نريد ما وراءه، فقال الفرزدق: أنا أعرف من ولده ستة عشر، ومن ولد ولده أربعة كلهم قد ربع، فقال عبد الملك: ولد ولده. هم ولده ادفع إليه الجائزة يا غُلام" (المرجع نفسه، 10/ 153)

وكان يُعْجِبُه المدح الصادق وإن كان في خصم من خصومه، ويتجلى ذلك في خبره مع الرّجل الّذي جاءه برأس مصعب بن الزُّبير فقال له: (يا أمير المؤمنين لو رأيتَه والرُّمح في يده تارة، والسَّيف في يده تارة، يفرى هذا، ويطعن هذا، لرأيتَ رجلاً يملأ القلب والعين شجاعة، لكنَّه لَمَّا تفرغت عنه رجاله وبقى وحده ما زال ينشد:

وإنِّي عَلَى المكروهِ عِنْدَ حُضورِه أُكَذِّب نَفْسي والجُفونُ لَهُ تَغْضي
وَما ذَاكَ مِن ذُلٍّ ولكن حفيظةٌ أَذبُّ بِهَا عِنْدَ المكارِهِ عَنْ عِرضي
وإنِّي لأهلِ الشَّرِ بالشرِ مُرصِدٌ وإنِّي لذي سِلْمٍ أَذلّ مِنْ الأَرْضِ

فقال عبد الملك: صدق، كان والله كما وصف نفسه) (ابن الأثير، 4/ 13)

هذه أبيات حماسة تصلح في سُوح القِتال؛ إذا أنَّها تحث النفس على الإقدام، وصف الشاعر نفسه بالشِّدة على الأعداء واللين على الأصدقاء، وهكذا كانت السادة من العرب.

نقده لشُعراء المدح: عاب عبد الملك شعراء المدح في جملة أشياء وهي:

المدح بمعاني لا توافق مقام الخليفة:

استوخم عبد الملك بن مروان جملة من الأشعار لعدم موافقتها المقام، لقد أشار السكاكي لضرورة تنوع الكلام وفقاً لتنوع المقام قائلاً: (إنَّ مقامات الكلام متفاوتة: فمقام الشكر يباين مقام الشكية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذَّم والكلام مع الذكي يختلف عن الكلام مع الغبي، ومُخاطبة الملوك ليست كمخاطبة العامة والسوقة وهلمَّ جرّا) (السكاكي، 2000م)

وممَّا مجَّه عبد الملك قول جرير:

هَذَا ابنُ عَمِّي في دِمَشْقَ خَلِيفَةُ لَوْ شِئْتُ سَاقَكُم إِلَيَّ قَطِينَا

فقال عبد الملك: (جعلتني شرطياً لك، أما لو قلتَ: لوشاءَ ساقَكم إلّي قطينا لسقتهم إليك عن آخِرهم) (المرزباني، 192)

واستثقل قول الأخطل:

خَفَّ القَطِينُ فَراحوا مِنْكَ أُو بَكروا أَزْعَجَتْهُمْ نَوًى في صَرْفِها غِيَرُ

فقال عبد الملك (بل منك إن شاء الله)ولذلك عدل الأخطل عن هذه الكلمة الَّتي لم تجد حفاوة عند الخليفة لكلمة هي أرحب منها قائلاً:

خف القطين فراحوا (اليوم) أو بكروا...) (المرجع نفسه، 226)

وانزعج لَمَّا خاطبه جريِّر خطاباً مباشراً لا يحفظ المسافات بين الراعي والرعيَّة قائلاً:

أَتَصْحوا أُم فُؤادكَ غَيرُ صَاحِ عَشِيَّةَ هَمَّ صَحْبُكَ بالرَّواحِ

فقال عبد الملك: بل فؤلك يابن الفاعلة، كأنَّه استثقل هذه المواجهة، وإلّا فقد عَلِم إنَّما الشاعر يُخاطب نفسه) (ابن رشيق، 2001م، 1/ 22)

وعاب على ذي الرُّمة ما عابهُ على سابقه إذ يقول:

ما بَالُ عَيْنِكَ مِنْهَا الماءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّهُ مِنْ كُلَى مَفْرِيَّةٌ سَرِبُ

فقال عبد الملك:– وكانت عينه تدمع– وما سؤالك عن هذا يا جاهل، فمقته وأمر بإخراجه) (ابن رشيق، 1/ 222) وأصلح الشاعر الفساد مستبدلاً كلمة (عينك) بكلمة (عيني)

الانشغال عن الخليفة بغيره:

وكان يعيب على مادِحه التشاغل عنه بشئٍ سواه، ولذا عاب على ذي الرُّمة لَمَّا أنشده:

إِنْ تَحطَّتْ نَاقَتِي مِنْ مَفَازَةٍ إِلَيْكَ وَمِنْ أَحْوَاضِ مَآءٍ سُدَّمِ
بِأَعْطَانِهِ الْقِدَانُ هَلْ لَكَ فِيهَا فَإِنِّي صَيْصَاءُ الْهَبِيدِ الْمُحَطَّمِ

فقال عبد الملك: (ما مدحتَ بهذه القصيدة إلّا ناقتَك، فخذ منها الثواب) (أبو الفرج الأصفهاني، 12/ 39)

تجاهل الخليفة:

وإذا كان الخليفة يمقت الانشغال عنه في المدح إلى ما سواه، فكيف بتجاهله والسؤال عنه بصيغة الاستفهام كأنَّه يجهله، هذا أمقت عنده من ذاك، وأَحْظى عنده بالبُعد وعدم القبول، قال أبو قطينة لعبد الملك:

نبئتُ أَنَّ ابن القلمس عابني وَمَنْ ذَا مِنْ النَّاسِ الصحيحُ المسالُم
فأبصرَ سبلَ الرشدِ سيد قومه وَقَدْ يُبصر الرُشَدَ الرئيسُ المعمُم
فَمَنْ أنتم ها خبرونا مَنْ أنتم وَقَدْ جعلت أشياء تبدو تُكْتُم

فقال عبد الملك: (ما كنتُ أرى أَنَّ مثلنا يُقال له: مَنْ أنتم؟ أما والله لولا ما تعلم لقلت قولاً أُلحقكم بأصلكم الخبيث، ولضربتك حَتَّى الموت) (أبو جعفر بن جرير الطبري، 1380هـ، 421)

لقد فَطِن عبد الملك إلى معانٍ نقدية يَكِلُّ العقل في استخراجها إلّا بعد تحريك الفكر، وتوقد الذهن، وشِدّة الحصافة، وهو ما عُرف عند البلاغيين (الغموض الفني)

الإيحاء، والتورية:

ومن الإيحاء قول الرقيّات لَمَّا أنشده مادحاً: (المرزباني، 243)

أَنْتَ ابْنُ مُنْبَطِحِ البِطَاحِ كَفَائِهَا
وَلِبطنِ عَائِشَةَ الَّتي فَرَعتْ أَرُومَ نِسَائِهَا
وَلَدَتْ أَعَزَّ مُهَذَّباً كَالشمسِ عِنْدَ ضِيائِهَا

قال: قل (نسل) ولا تقل (بطن) فهو يستعيض كلمة آثر في نفسه، وأوقع في نفوس السامعين لبعدها عن الإيحاء، وهو أن تتجاوز الألفاظ مدلولها اللُغوي إلى مدلول آخر عند المتلقي، وربَّما آض المعنى لضده، ولذلك لم يحب عبد الملك إضافة كلمة (بطن) إلى عائشة.

التجديد في معاني المدح:

نظر الخليفة لمعاني الشُعراء المعاصرين له في مدحه، فرأها كلّها تنزح نحو الحيوان أبو الطبيعة من :صقر، وأسد، وحيَّة، وجبال وبحار، وهي معاني لا ترتفع لها هامة الخليفة، ولم يأخذ أقوالهم على نجيزتها، بل رام القيم الخُلقية في هذا الباب قائلاً لجُلسائه: تُشبهوني بالحيَّة ألا قلتُم كما قال كعب بن الأشقر في المُهلَّب وولده: (أبو الفرج الأصفهاني، 14/ 278)

مُلوكٌ ينزلون بكلِ ثغرٍ إذا ما الهامُ يَوْمَ الروعِ طَارَ
نجومٌ يهدى بهُم إذا ما أخو الظلماءِ في الغمرات حارَ

ويقول للشُعراء تارة أخرى: "يا معشر الشُعراء تُشبهوننا مرّةً بالأسد الأبخر، ومرّةً بالجبل الأوعر، ومرّةً بالبحر!! ألا قلتم كما قال أيمن بن خُريم في بني هاشم: (المرجع نفسه، 20/ 322- 324)

نهاركُم مكابدةٌ وصومٌ وليلكم صلاةٌ واقتراءُ
وليتم بالقرآنِ وبالتزكي فأسرعَ فيكم ذاك البلاءُ
أ أجعلكم وأقواماً سواءً وبينكم وبينهم الهواءُ
وهم أرضٌ لأرجلكم وأنتم رؤسهم وأعينهم سماءُ

ونجده يوجه الأخطل إلى المعاني السامقة الّتي تجعل الممدوح قِبلة القُصاد قائلاً: "إن كنتَ شبهتني بالصقر والأسد فلا حاجة لي في مِدحتك، وإن كنتَ كما قالتْ أخت بني الشّريد لأخيها صخر فهات، فقال الأخطل: وما قالتْ:يا أمير المؤمنين؟ قال هي الّتي تقول:

وَما بَلغتْ كَفُّ امرئٍ مُتناولٍ مِنْ المَجْدِ إلّا حَيْثُ ما نِلْتَ أَطْوَلُ
وَما بَلَغَ المُهْدُونَ في القولِ مِنْحَةً وَلَو أَطْنَبُوا إلّا الّذي فِيكَ أَفْضَلُ
وَجارُكَ مَحْفُوظٌ مَذيعٌ نَجْوَةٍ مِنْ الضيمِ لا يَشْكُو وَلا يَتَذَلَّلُ

فقال الأخطل: والله لقد أحسنتُ القول، ولقد قلتُ فيك بيتين ما هما بدون قولها، فقال: هات، فأنشأ يقول: (العسكري، 63)

لَئِنْ متَّ ماتَ الجودُ وانْقَطَعَ النَّدى مِنْ النَّاسِ إلّا مِنْ قَليلٍ مُصَرَّدِ
وَوُرِّثَت أَكفُّ السائلين وَأُسكِتُوا مِنْ الدِّينِ والدُّنيا بِخُلفٍ مُجدَّدِ

والحق إنه لم يكن أجود من الخنساء؛ لأنّه ذكر الموت الّذي يتطير منه، حيث لم تذكره الخنساء في شِعرها.

المدح بالمعاني الخُلقية والإنسانية:

ومن بِقِيل نقده لمعاني المدح، قصته مع الرقيَّات وذلك لَمَّا قُتِل مُصعبٌ وجاءه ابن الرقيَّات معتذراً فقال عبد الملك لِجُلسائه: (يا أهل الشام، أتعرفون هذا؟ قالوا: لا. قال:هذا عبيد الله بن قيس الرقيَّات، الّذي يقول:

كَيْفَ نَوْمي عَلَى الفِراشِ وَلَمَّا تَشْمُلُ الشامَ غارةٌ شَعْواءُ
تَذْهَلُ الشيخَ عَنْ بَنيهِ وتُبدي عَنْ خدامٍ العقيلةُ العذراءُ

قالوا: يا أمير المؤمنين، اسقنا دَم هذا المنافق. قال:الآن وقد أَمِنتُه وصار على بساطي وفي منزلي؟! إنَّما أخرتُ الإذن له لتقتلوه فلم تفعلوا فاستأذنه في الإنشاد فأذن له. فأنشده:

(عَدَلَ له مِنْ كثيرة الطّربُ) حتَّى وصل إلى قوله:

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنْ اللهِ جَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْماءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ قُوَّةٍ لَيْسَ فيهِ جَبَروتٌ وَلا بِهِ كِبْرِياءُ
اتَّقِ اللهَ في الأمورِ وَقَدْ أَفْـ ـلَحَ مَنْ كانَ لَهُ الاتِّقاءُ

أَمَّا الأمان فقد سبق لك، ولكن لا تأخذ مع المُسلمين عطاءً أبداً!" (عبد القادر البغدادي، 1996م، 7/ 287-288)

وكان يمدح عبد الملك بالتاج وجمال الشكل قائلاً: (أبو هلال العسكري، 1419هـ، 98)

يأتلق التّاج فوق مفرقه على جبين كأنّه الذّهب

ومن القصة السابقة يتبين بأنَّ نفسية الخليفة لم تكن مهيأة لتقبل المدح لِما فرط من الشاعر ما قد فرط، من نفضريد الطاعة واتساع لسانه ذماً للخليفة، ثُمَّ إنَّ الشاعر لم يكن صادقاً في مدحه، بل توافت به الأمور إلى بسط السلطان، فوجد المقامضنكاً والخليفة واجماً وكذا حاشيته؛ لذلك عجز لسانه عن تلخيص صفته الخُلقية، وطفق يذكر من صفاته الخَليقة، وهو أمر لا يقوم به المدح، وللنَّقاد أقوال في هذا الباب.

قال قُدامة بن جعفر (فإن كان الممدوح ملكاً، فإنَّ مدحه ينبغي أن يكون بتفوقه على أقرانه الملوك والأمراء، وامتيازه عن سائر النَّاس، فيجعله كعبة القُصاد وموطن الرجاء والرهبة، وشمس الدُّنيا وأفضل المُلوك) (قُدامة بن جعفر، 82– 84) على نحو ما قال النَّابغة الذّبياني في النُّعمان بن المنذر: (ديوان النَّابغة الذّبياني، 74)

لم ترَ أنّ الله أعْطاكَ سُورَة ترَى كُلَّ مَلْكٍ دونَها تَنْبَغِي

فإنَّكَ شمْسٌ والملوكُ كَواكِبٌ إذا طَلَعَتْ لَمْ يبْدُ منهنَّ كَوْكَبُ

قال القرطاجني: (فأمَّا مدح الخُلفاء فيكون... بنصر الدِّين وإفاضة العدل وحسن السيرة والسِّياسة والعلم والحلم والتقى والورع والرأفة والرحمة والكرم والهيبة وما أشبه ذلك، ويتخطى في أوصافهم حدود الاقتصاد إلى حدود الافراط) (حازم القرطاجني، 1986م، 170)

لقد أخطأ الرقيَّات بحيث جعل رتبة الخَليفة دُون رُتبة مُصعب بن الزُّبير.

الهجاء:

إنَّ الهجاء غرض قديم المنشأة، يأتي بطريقتين هما: التصريح، وهي الأكثر،: التعريض، وهي الأقل، وأعني بالتصريح أنَّ الهجاء في الأبيات ظاهر بيِّن صريح لا يحتاج إلى كبير جهد وتحريك فكر، ومنه قول الخليفة لجلسائه: "أهجي بيت قالته العرب في ابن الزُّبير: (ابن عبدو ربه ، 6/ 127)

فإن تصبكَ من الأيامِ جائحةٌ لم نبك منك على دنيا ولا دينِ

إنَّ هذا البيت من أبشع أنواع الهجاء، وهو من قول خصوم ابن الزُّبير، يبعد عن الحقيقة؛ لأنَّ ابن الزُّبير إن لم يك رجل دنيا بالعطاء والهباة، فلا أحد يتردد في أنَّه رجل دين، وحق الشاعر أن يبكي على دينه إن لم يبكِ على دنياه.

ومن قبيل التعريض بالشِّعر ما وقع للخليفة لَمَّا سأل جلساءه "أيَّ الشُّعراء أفضل؟ فقال له كَثيِّر بن هراسة – يُعرِّض به –: أفضلهم المُقنع الكِندي

حيث يقول:

إنِّي أُحَرِّصُ أهْلَ البُخْلِ كُلِّهِمُ أنْ يَنْفَعُوا أهْلَ البُخْلِ تَحْرِيضِي

ما قَلَّ مالِي إلَّا زادَنِي كَرَماً حَتَّى يَكُونَ برِزقِ اللهِ تَعْوِيضِي

فالمالُ يَنْفَعُ مَنْ لَوْلا دَراهِمُهُ أمْسَى يُقَلِّبُ فِينا طَرْفَ مَخْفُوضِي

لَنْ تُخْرِجَ البِيضُ عَفْواً مِنْ أكُفِّهِمُ إلَّا عَلَى وَجَعٍ مِنْهُمْ وَتَمْرِيضِ

كَأنَّما مِنْ جُلُودِ الماخِرِينَ بِنا عِنْدَ النَّوائِبِ تُحْذَى المَقارِيضِ

فقال عبد الملك –وقد عرف ما أراد – الله أصدق من المُقنع حيث يقول﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (سورة الفرقان، 67)وكان عبد الملك يُسمى رشح الحجارة لبخله" (أبو هلال العسكري، 1987م، 251– 252)

ولا أصدق من كِتاب الله للردّ على قول الشاعر كما صنع الخليفة.

الغزل:

اتصل ببلاطة شُعراء الغزل بشقيه عفيف وفاحش، وكان نصيبه من العفيف الإعجاب والطرب التعليق والتوجيه. وأَمَّا نصيبه من الثاني فكان الرفض والغضب؛ لتجرده من القِيم الخُلقية.

نقده لمعاني الغزل العفيف:

للخليفة أخبار في تقويمه لمعاني الغزل العفيف –بما فتح الله عليه –ومن هذا ما رواه الأقيشر: "أنَّه دخل على عبد الملك فذكر بيتَ نُصيب:

أُهيمُ بِذِكْرِ مَا حَيِيتُ فإنْ أُمُتْ ... أَحَزناً مَنْ ذَا يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي

والله لقد أساء قائل هذا البيت. فقال له عبد الملك: فما كنتَ تقول؟ قال: كنتُ أقول:

تُحِبُّكُمُ نَفْسِي حَياتِي فإنْ أُمُتْ ... فكل بِذِكْرِ مَنْ يَهِيمُ بِهَا بَعْدِي

فقال عبد الملك: فأنت والله أقبح قولاً، وأقل بصراً، حين توكل بها بعدك. قِيل ما كنتَ أنتَ قائلاً يا أمير المؤمنين؟ قال: كنتُ أقول:

بِكُمْ نَفْسِي حَيَاتِي فَإِنْ أُمُتْ ... فَلَا صَلُحَتْ لِذِي خُلَّةٍ بَعْدِي

فقال من حضر: والله لأنتَ أجود الثلاثة قولاً، وأحسنهم بالشّعر عِلماً يا أمير المؤمنين" (الموشح، 298)

إنَّ المُحبَّ يغار على زوجته، ولا يتمنى أن يتصل حبلها برجل سواه، وإن أَرِم وهلك.

وكان يبغض الشّعر الّذي يخالف الطبع، قال لكُثيِّر: (أنشدني بعض ما قلته في عزَّة فأنشده، إلى أن قال:

هَمْتُ وَهَّمْتُ ثُمَّ هَابتْ وَهِبْتُهَا ... حَيَاءً ومِثْلِي بالحياءِ حقيقُ

فقال عبد الملك: أما والله لولا بيتٌ أنشدتنيه قبل هذا لحرمتك الجائزة، قال: ولما يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنَّك أشركتها معك في الهيبة ثُمَّ استأثرت بالحياء دونها. قال أي بيت عفوتَ عنِّي به يا أمير المؤمنين؟ قال: قولك: (ابن عبدو ربه، 6/ 189)

دَعُونِي لَا أُرِيدُ بِهَا سِوَاهَا ... وَنِي هَائِماً فِيمن يَهِيمُ

يرى عبد الملك أَن يضرب الشاعر لمحبوبته سهماً من الحياء، فهو رأس الأمر عندهُنَّ، وجبلهنَّ الله عليه، فكيف يبخسها ذاك؟!

وفي مجلس آخر مع بنيه وجاريته يقع منه سؤالٌ، "أيُّ بيت قالته العرب أرق؟ قال: الوليد قول جرير:

إِنَّ العُيونَ الَّتي في طَرفِها حَوَرٌ ... قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا

قال سُليمان: قول عمر بن أبي ربيعة:

بَدَا رَجْعُهَا إِلْبِها بَغْتَةً ... فَنَادَتْ بِأَعْلَى صَوْتِهَا وَاتَخُطَّ الإِزَارَ

قالت الجارية قول حسَّان بن ثابت:

لَو يَدب الحَولُ مِن وَلَدِ الذرِ عَليها تَدبتها الكُلُوم

فقال عبد الملك: أحسنت، وما نرى شيئاً في الإحسان إليك من ربّك إلى أهلك.فأعظم كسوتَها، وأحسن صلتها" (الحصري، 2002م، 2/ 186) مدح حسَّان صاحبه بالرقة الّتي لا مثيل لها، فالنمّل لو سار على جسمها لأحدث فيه جراحاً، نعم إنَّه أرقَ بيتٍ، لا فحش فيه ولا تقصير.

الغزل الفاحش:

هذا الضرب من الغزل لم يك الخليفة به حفياً، وطفق يَستنكره يَستهجنه وفقاً لمعانيه المُنسلخة عن الحياء، ومن قَبيل هذا النَّقد قوله لعمر بن أبي ربيعة –لمَّا لقيه في طريق حجّه فحياه فردَّ عبد الملك–: (لا حياك الله يا فاسق) ألستَ القائل: (محمد محي الدّين، 1925م، 336)

لَولا أَن تُعنِفني قُرَيشٌ وَقالَ النّاصِحُ الأَدنى الشَقيقُ

لَمَشَيتُ إِلَتَقَبيلَها وَلَثَمتُ فاها وَلَو كُنّا عَلى ظَهرِ الطَريقِ

إنَّالّذي حجز الشاعر عن التقبيل مخافة التقليظ والتعنيف الّذي يجده من قريش، ولولا ذاك لنال من محبوبته مبتغاه ولو كان على قارعة الطريق، هذا المعني لم يرق الخليفة لِما فيه من التعهر ومخافة النَّاس، لا مخافة الله، ولو كان الحاجز مخافة الله لكان عند الخليفة أوقع.

لم يك استنكار عبد الملك لهذا الضرب من الغزل حِكراً على عمر بن أبي ربيعة وحده، بل كان لنُصيب نصيبٌ لَمَّا أنشده:

وَضَمِّ الكَشحِ يَطويهِ الضَجيعُ بِهِ طَيَّ الحَمائِلِ لا جافٍ وَلا فَدِمِ

وَذي رَوادِفَ لا يُلفى الإِزارُ بِها يُلوي وَلَو كانَ سَبعاً حَينَ يَأتَزِرُ

فغضب عبد الملك من هذا الفحش، وسأل نُصيباً عن هذه المرأة، فقال: بنت عّملي نوبية لو رأيتَها ما شربتَ من يدها الماء! فقال عبد الملك: لو غير هذا قلتَ:لضربتُ الّذي فيه عيناك) (أبو الفرج الأصفهاني، 1/ 336)

ظن عبد الملك أنَّ الشاعر طابق قوله فعله في الفحش –لذلك غضب –لكنَّ الشاعر أخبره أنَّها حلّت من القبح مكاناً يَصُب معه ثُوب الماء من يدها، فكيف بما هو أعظم؟! ولذلك سكن غضب الخليفة؛ لأنَّ الشاعر يقول ما لا يفعل.

الرثاء:

هو من الأغراض الّتي تحتاج إلى رِقة وتفجعٍ، لا يحسنه من كان حظه من اللفظ الغلظة، ومن الطّبع الفجاجة، وعلى قدر صِدق صاحبه وامتزاج كلماته مع دموعه يكون انفعال المُتلقي، وللخليفة وقفات يسيرة معه مفضلا ليلى الأخيلية على الخنساء رُوى أنَّه "سأل الشّعبي عن أشعر نِساء الجاهلية؟ فقال: الخنساء، قال: وَلِما فضلتها: قال لقولها:

وَقائِلَةٍ وَالنَّعشُ قَد فاتَ خَطوَها تُدرِكهُ يا لَهفَ نَفسي عَلى صَخرِ

أَلا تَكلَتِ أُمُّ الَّذينَ غَزَوا بِهِ إِلَى القَبرِ ماذا يَحمِلونَ إِلى القَبرِ

فقال عبد الملك:أشعر منها الّتي تقول –يعني ليلى الأخيلية –:

مُهفهفُ الكشحِ والسِّربالِ مُنخرقٌ عنهُ القميصُ لسيرِ اللَّيلِ مُحتَقِرُ
لَا يَأمَنُ النَّاسُ مَسَاهُ وَمُصبَحَه في كُلِّ نَجٍ وَإِنْ لَم تَرَهُ يَتَنَظَّرُ

ثُمَّ قال: يا شعبي، إنَّما أعلمتك هذا؛ لأنَّه بلغني أنَّ أهل العراق يتطاولون على أهل الشام، ويقولون: إن كانوا غلبونا على الدَّولة فلم يغلبونا على العلم والرواية، وأهل الشام أعلم بعلم أهل العراق من أهل العراق" (أبو الفرج الأصفهاني، 11/ 24)

لا يبرأ هذا الحكم من عصبية ليست من النَّقد ومنهجه في شيءٍ، فالخنساء أشعر من ليلى الأخيلية، وهي مُقدَّمة عليها عند أهل الأدب والنَّقد.

الخاتمة:

الحمدلله الَّذي أعانني على إكمال هذه الدِّراسة الَّتي حاولتُ فيها جمع اتجاهات عبد الملك بن مروان النَّقدية في تذوقه للشِّعر العربي، وخرجت الدِّراسة بنتائج أهمها:

1- تمكن عبد الملك بن مروان من ناصية اللغة والاطلاع على أدب العرب.

2- اتخذ عبد الملك بن مروان الصِدق في الشِّعر مقياساً في تفضيله للشُّعراء.

3- أفاد عبد الملك النُّقاد في ترجيحاته وموازناته بين الشُّعراء، كما كان له فضل السبق في استحداث المصطلحات النَّقدية مثل: المبالغة والصِّدق والتكلف.

4- أُعجب بالمعاني الخُلقية والإنسانية في الشِّعر، ومقت الشِّعر الَّذي يدعو إلى الرذيلة والفحش.

5- جاء نقده -في بعض الأحيان -متعصباً لمذهب سياسي أو قبلي أو لشِّعر قديم على الشِّعر المعاصر له، ممَّا أبعده عن منهج النَّقد المعتدل.

التوصيات:

أوصى بمزيد من الدِّراسات حول خُلفاء بني أميَّة عموماً، وعبد الملك بن مروان على وجه الخصوص؛ على أن تختص الدِّراسة بنقده للنثر العربي؛ لأنَّ الدِّراسة هذه اختصت بنقده للشِّعر العربي.

الهوامش:

1. القطين: هم الخدم.
2. حجراته: نواحيه.
3. سماوته: أعلاه. أسمال: أخلاق. مُحبَّر: مزين. صهوته: ظهره. الأتحمي: ضرب من البُرودة المزينة. معصّب: العصب يُعصبُ غزلها أي يُجمع ويُشد ثُمَّ يُصبغ ويُنسج.
4. أطنابه: أي حباله. أرسان جرد: حبال خيل جرد. القنا: الرماح. البادئ: الَّذي غزا أوَّل غزوة. المعّقب: الَّذي غزا غزوة بعد غزوة.
5. نصبت على قوم: أي نصبت هذا البيت على قوم منهم. الغرير: الشاب الَّذي لم تحكمه الأمور. الأشيب: الكهل الَّذي نجده مراسه للأمور
6. المراجل جمع مرجل وهو القدر الَّذي يُطبخ فيه الطعام.
7. شبه ما أخذ فيه النضج بالورد. وما لم ينضج بالأشقر. يؤنيه: ينتظره.

8. الجرد: الخيل قصيرة الشَّعر. الأعراف: شَعر في مقدمة الـعُنق.
9. نمش: نمسح. مُصهب: لم ينضج.
10. الدلاص: درع ملساء براقة. المسدي: الَّذي نسج سداها ولحمتها السرد. النسج. وإدخال الحلقات بعضها ببعض. أذالها: أطال زيلها.
11. الكتيبة: الجماعة من الجند. ملمومة: مجتمعة إلى بعضها. نهالها: عطشها أراد الرماح تعطش إلى دمائهم.
12. الجُنّة: الدرع يُلبس ليقي المحارب. معلماً: متخذاً علامات تميزه عن غيره.
13. ولَا أُحْاشِي: أي لا أقول حاشا فلاناً فهو يشبهه في فعل الخير.
14. العافي: ما تبقى في آخر القدر من المرق. شركة: اشتراك الجماعة في الشئ.
15. أقسم جسمي: أقسم الطعام الَّذي يحتاجه جسمي.
16. الربع: هو ربع الغنيمة، كانت تعطى للسيد وقصد أن أبناءه سادة ملوك.
17. قطيناً: يعني خدماً.
18. الكُلى: جمع كُلية بالضم، وهي جُليدة مستديرة تحت عروق المزادة تُخزز مع الأديم.
19. المفازة: الصحراء. الماء المسدم: الماء المتغيِّر الرائحة.
20. الأعطان: مبارك الإبل. القِوان: دُويبة متطفلة تعيش على الدواب والطيور، الصيصاء: مهزول حب الحنظل، وهذه القِودان أشبه شيء به. الهبيد: حب الحنظل المتحطم.
21. كدى وكداء: موضعان.
22. البيض: الدراهم.
23. تحذى: تقطع.
24. الكلوم: الجروح.
25. مهفهف الكشح: ضامر البطن.

المصادر والمراجع:

1. القرءان الكريم.
2. (أبو علي القالي) إسماعيل بن القاسم (الأمالي) الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976م
3. (أبو الفرج الأصفهاني) علي بن الحُسين (الأغاني) مُؤسسة الرسالة، بيروت 1983م
4. أبو هلال العسكري (الأوائل) تحقيق: محمد السَّيد الوكيل، دار البشير للثقافة والعُلوم الإسلامية –القاهرة – ط1، 1987م
5. (ابن الأثير) علي بن أبي مكرم (الكامل في التاريخ) تحقيق: عبد الوهاب النجار، إدارة الطباعة المنيرية.
6. (ابن رشيق القيرواني) أبو علي الحسن (العُمدة في محاسن الشِّعر وآدابه) تحقيق: محمد عبد القادر أحمد، دار الكُتب العِلمية، بيروت –لبنان –ط1، 2001م

7. (ابن سعد) محمد بن سعد بن منيع (الطبقات الكُبرى) تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 2001م
8. (ابن عبد ربه) أحمد بن محمد (العِقد الفريد) تحقيق: محمد سعيد العريان، المكتبة التجارية الكبرى، 1953م
9. (البكري) عبد الله بن عبد العزيز (التنبيه على أوهام أبي علي القالي في أماليه) مطبعة دار الكُتب المصرية –القاهرة –ط1، 2000م
10. حازم القرطاجني (منهاج البلغاء وسراج الأدباء) تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي ط3، 1986م
11. (الحُصري القيرواني) أبو إسحاق بن إبراهيم (زهر الآداب وثمر الألباب) وضع حواشيه وشرحه: صلاح الدِّين الهواري، المكتبة العصرية، بيروت –لبنان –ط1، 2002م
12. (الخطيب البغدادي) أبو بكر البغدادي (تاريخ بغداد) القاهرة، 1931م
13. (الزركلي) خير الدِّين الزركلي (الأعلام) دار العِلم للملائين، بيروت –لبنان –ط15، 2002م
14. (السكاكي) يوسف بن أبي بكر (مِفتاح العلوم والحكم) تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، دار الكُتب العِلمية – بيروت –2000م
15. (السيوطي) جلال الدِّين السيوطي (تاريخ الخُلفاء) دار ابن حزم، بيروت –لبنان –ط1، 2003م
16. الشمَّاخ بن ضرار (الدِّيوان) تحقيق: صلاح الدِّين الهادي، دار المعارف المصرية.
17. (الطبري) أبو جعفر بن جرير (تاريخ الطبري) دار المعارف، مصر، 1380هـ
18. طُفيل الغنوي (الدِّيوان) شرح: الأصمعي، تحقيق: حسَّان فلاح، دار صادر، بيروت –لبنان –ط1، 1997م
19. عبد القادر البغدادي (خِزانة الأدب ولُب لُباب لِسان العرب) تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط3، 1996م
20. عُروة بن الورد (الدِّيوان) شرح: سعدي ضنَّاوي، دار الجيل، بيروت –لبنان –ط1، 1996م
21. (العسكري) أبو الحسن أحمد (المصون في الأدب) تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، 1402هـ
22. علي بن أبي الفرج (الحماسة البصرية) تحقيق: عادل سُليمان جمال مكتبة الخانجي، ط1، 1999م
23. عمر بن أبي ربيعة (شرح الدِّيوان) محمد محي الدِّين، مطبعة السعادة –مصر –ط1، 1925م
24. عمر بن قُميئة (الدِّيوان) تحقيق: إبراهيم خليل، مطبعة دار صادر –بيروت –ط2، 1994م
25. قُدامة بن جعفر (نقد الشِّعر) تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكُتب العِلمية، بيروت، لبنان.
26. كُثيِّر عزَّة (الدِّيوان) تحقيق: إحسان عبَّاس، دار الثقافة، بيروت –لبنان –1971م
27. (المرزباني) محمد بن عمر (الوشح في مآخذ العُلماء على الشُّعراء) تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر.
28. النّابغة الذّبياني (الدِّيوان) تحقيق: أبو الفضل، دار المعارف المصرية، ط3
29. (النويري) شهاب الدِّين بن أحمد (نهاية الأرب في فنون الأدب) تحقيق: يوسف الطويل، دار الكُتب العِلمية، بيروت –لبنان –ط1، 2004م